

عبقرية الخليل بن أحمد في تطور الفكر النحوي

د. بخيت عثمان جبارة^(١)



ملخص البحث

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن الفراهيدي البصري عبقري من عباقرة العرب، ولا يختلف اثنان قديماً وحديثاً، في أن الخليل بن أحمد هو المؤسس الحقيقي لعلوم العربية، من نحو وعروض، ومعجم، وما يتصل بهذه العلوم بعدئذ وليس لنا من تراثه القديم غير كتبه المعروفة لدينا مثل: «الجمال في النحو» و«كتاب النحو». وللوقوف على آرائه وإنجازاته وفكره النحوي ومن خلال هذا البحث: «عبقرية الخليل بن أحمد في تطور الفكر النحوي» والبحث يتكون من خمسة مطالب:

المطلب الأول: عبقرية الخليل بن أحمد.

المطلب الثاني: تطور الفكر النحوي عند الخليل بن أحمد.

المطلب الثاني: آراء الخليل في الفكر النحوي.

المطلب الرابع: المصطلح النحوي عند الخليل بن أحمد.

(١) جامعة الفاشر - كلية الآداب - قسم اللغة العربية - السودان.

- المطلب الخامس: خصائص المنهج النحوي في فكر الخليل بن أحمد.
- أ - القياس النحوي.
- ب - السماع.
- ج - موقفه من الاحتجاج بالقراءات.
- د - موقفه من الاحتجاج بالحديث النبوي.



Abstract

The geniusness of AlKhaleel Ibn Ahmed in promoting Arabic syntactic schools

submitted by: Dr. Bakheet Othman Jubara Alfaashir university - Faculty of Arts Arabic language department.

The researcher of the sciences of syntax, prosody and dictionaries the researcher underscores the contributions and achievement of Alkhaleel Ibn Ahmed who has contributed effectively in promoting Arabic grammar thinking and linguistic achievement in enriching Arabic inquiry examines the geniuses of Alkhaleel language grammar.

The third theme throws light on the points of views of Alkhaleel Ibn Ahmed and his syntactic thinning.

The fourth topic examines syntactic terminologies used by Alkhaleel.

The fifth query discusses the characteristic of syntactic methodology for Alkhaleel Ibn Ahamed based on:

- A - Syntactic try.
- B - Hearing.
- C - His status in approving unit readings.
- D - His points of views in making use of the traditions' of prophet.



المطلب الأول

عبقرية الخليل بن أحمد

ذكاءه وعلمه:

كان الخليل ذكياً فطناً يضرب به المثل في هذا المجال، وقد تحدث ابن سلام عن ذكائه وفطنته فقال:

«سمعت مشايخنا يقولون: لم يكن للعرب بعد الصاحبة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع^(١)، وقد اتصف الخليل بالزهد في الدنيا والانقطاع إلى العلم، يروى عنه أنه قال: إن لم تكن هذه الطائفة - يعني: أهل العلم - أولياء الله فليس لله ولي، وقد وجه إليه سليمان بن علي (عم الخليفة المنصور) من الأهواز - وكان واليها - يلتبس منه الشخوص إليه وتأديب أولاده^(٢)».

وتحدث أبو محمد التوجي قال: اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق فتذكرنا أمر العلماء فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال: الخليل أذكى العرب، وهو مفتاح العلوم ومصرفها^(٣).

وفي يوم من الأيام كان صبية الحي يلعبون، فمر بهم الفرزدق يوماً

(١) مراتب النحويين أبو الطيب اللغوي، ط نهضة مصر الفجالة. وانظر: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية د. عبدالعال سالم مكرم ط دار المعارف - مصر ص ٨٣.

(٢) المفصل في المعاجم العربية، د. حمد بن بخيت عمران، ط مكتبة زهراء الشرق - مصر ص ٧٢.

(٣) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية - عبدالعال سالم مكرم ص ٨٣.

وهو على بغل، وكان قبيح الوجه، فجعل الصبية ينظرون إليه ويطيلون النظر في وجهه، فغاظه ذلك، وأراد أن يخيفهم فأنشد قوله:

نظروا إليكم بأعين محمر نظر التيوس إلى مدى القصاب

ولعله كان ينضبط في إنشاده على قوله: (مدى القصاب) ليخيفهم فينفضوا من حوله فقال له بعضهم: أنظر إليك أنك مليح، كما يُنظر إلى القرد؛ فسكت الفرزدق ولم يجب بشيء، وصرف وجهه بغلته ومضى^(١). ولم يرد الفرزدق عليه، ولعله لم يرد أن يطيل الكلام مع هؤلاء الصبية أخذاً ورداً لئلا يتلقى منهم رداً قوياً، أو لعله أراد أن يطوي هذه الحادثة فلا يدعها تتجاوز ملعب الصبية إلى حيث يتربص به جرير وغيره ممن كان يخشى ألسنتهم الحداد فتحول إلى قصيدة هجاء تنشد على جموع المزبد، ثم تسير بها الركبان.

كان هذا الصبي الذي أفحم الفرزدق وأسكته هو الخليل بن أحمد الذي ألهمه ذكاؤه أن يرد على بيت الفرزدق الذي لم يستطع الفرزدق أن يرد عليه، وكان الخليل آنذاك ابن عشر سنوات أو حول ذلك.

وكانت هذه الحادثة أو الموقف العابر هي القبس الوحيد الذي آنسه الدارسون من حياة الخليل الأولى، ثم ألقى الأحداث التي كانت دائرة بين السلطان والخارجين ستاراً كثيفاً على نشأة الخليل وتدرجه في صباه وشبابه وتقلبه في مدارج التعلم، فلا يكاد الدارس يعرف عنه شيئاً ذا بال إلا بعد أن صار الخليل عنوان البصرة ومفخرتها ومضرب أمثالها في الذكاء والعلم والورع والزهد.

وكان الخليل يقول الشعر، البيتين والثلاثة ونحوها في الأدب كمثل ما يروى له من (الكامل):

(١) عبقرى من البصرة، د. مهدي المخزومي، ط وزارة الإعلام العراقية، سلسلة الكتب الحديثة كتاب رقم ٥٣ - سنة ١٩٧٢ ص ٢٣: وانظر: نور القبس، المرزباني ص ٦٩.



لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عذلتكما
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتكما
وكما يروى له في الزهد من (المقارب):

وقبلك داوى المريض الطبيب فعاش المريض ومات الطبيب
فكن مستعداً لداعي الفناء فإن الذي هو آت قريب
وكان الخليل طريفاً حسن الخلق، ذكر أنه اشتغل رجل عليه في
العروض قال: كان بعيد الفهم فيه، قال: فقلت له يوماً: كيف تقطع هذا
البيت؟

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
فشرع معي في تقطيعه على قدر معرفته ثم أنه نهض من عندي فلم
يعد إليّ. وكأنه فهم ما أشرت إليه^(١).

والخليل عبقري من عباقرة العرب أكلت الدنيا بعلمه وكتبه وهو في
خص لا يشعر به^(٢)، والخليل عالم شيخ له أن يتقلب في بيئة علمية غنية
معاصراً مشاهير العلماء من أمثال الفقيه الكبير أبي حنيفة (ت ١٥٠هـ) رأس
مدرسة الرأي والقياس في تاريخ الفقه الإسلامي، وعاصر من النحاة
واللغويين الحضرمي (ت ١٧٠هـ)، وإذا كان الخليل قد انقطع إلى العلم
زاهداً بماديات الحياة، ومظاهرها الزائلة (لا يقدر على فلسين وتلاميذه
يكسبون بعلمه الأموال كما يقول الذي كان الناس يقولون: إنه لم يكن في
العربية بعد الصحابة أذكى منه).

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص ٥٢٠، والمفصل في المعاجم العربية د. حمدي عمران
ص ٧٢.

(٢) نحو الخليل من خلال معجمه، د. هادي نهر، ط عمان الأردن ص ٧، وبغية الوعاة
السيوطي، (١/٥٥٨).

وقد اجتمع الخليل وابن المقفع ليلة بطولها يتذاكران وافترقا فسئل الخليل عن المقفع فقال: رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله.

وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ فقال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه^(١).

وقد كان الخليل ذا أفق واسع، وعقلية نادرة، وفكر متقد، فأسهم في كل علم من علوم العربية.

ففي مجال النحو ألف كتابه الجمل في النحو وكتاب (العين) لم يسبق إليه ومهما اختلف الرواة في نسبة هذا الكتاب لل خليل، فإن ذكاء الخليل يقضي بأن يكون (العين) من صناعته وابتكاره، وفي مجال النحو قال السيرافي: (كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه)^(٢).

وضرب خالد النجار فيما يروي المرزباني بال خليل مثلاً فقال يخاطب التنوحي:

يا من يزيد تمقتاً وتباغضاً في كل لحظة
والله لو كنت الخليل لما رويناً عنك لحظة

وال خليل عربي أزدي من حي يقال لهم: الفراهيد، وكان من أهل عمان من قرية من قراها^(٣).

وعن أيوب هذا أخذ الخليل الحديث والفقه، وترك رأي قومه إلى أستاذه ورأي العامة من المسلمين.

(١) الطريق المعبد إلى علمي الخليل بن أحمد، د. عبد الحميد السيد عبد الحميد، ط الأزهر للتراث ص ١١.

(٢) البغية ص ٢٤٣.

(٣) نور القبس ص ٥٦.



ثم لم يتحدث التاريخ وطوى صفحات ما يزال بالدارس حاجة إلى متابعتها غير أن منطق الأحداث، يوافي بالدارس أن إنساناً مثل الخليل في رهاقة الحسّ وحدة الذكاء لم يكن ليغفل عما يجري من حوله ولم يكن ليدع شيئاً يفوته، ولا بد أنه جلس إلى شيوخ آخرين وأفاد منهم، مهتدياً، يقول أستاذه: إذا أردت أن تعلم علم أستاذك فجالس غيره، فلا بد أن يستقصى ولا بد أن يوازن وكان الخليل متواضعاً ورعاً حقاً لم يساوره الزهو بما وصل إليه ولا أضعفت خلقه تلك المنزلة التي ارتفع بها وكان مرموقاً من أجلها ورضي من العيش بالكفاف وبقي ملازماً حصته لا يجاوزه همه.

وهكذا كان الخليل لغوياً وعروضياً ونحوياً ولم يتهياً لأحد ممن سبقه أن يصل إلى ما وصل إليه في هذه المجالات كلها.

وقد توفي الخليل سنة خمس وسبعين ومائة، وقيل: سنة سبعين، وقيل: ستين وله أربع وسبعون سنة^(١).



(١) بغية الوعاة ص ٢٤٤.

المطلب الثاني

تطور الفكر النحوي عند الخليل بن أحمد

وصل النحو إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلاميذه وقد قطع مرحلة كبيرة من التطور بفضل هؤلاء الأعلام الذين تعاقبوا على تطويره، ومتابعة كلام العرب وظاهرة اللحن كان عاملاً خلفه بداية التفكير في وضع قانون يعيد إلى طبيعتهم وسليقتهم النحوية، واللغوية من الانحراف وقد تعددت الدراسات التي أفاضت الحديث عن اللحن.

وقد دأب أصحاب الطبقات على أن يرجعوا بالدرس النحوي، أو التفكير النحوي إلى أبي الأسود الدؤلي، ويجعلوا بين أبي الأسود والخليل بن أحمد طبقات من الدارسين النحويين وجعل أبو بكر الزبيدي، الخليل بن أحمد في الطبقة الخامسة من طبقات النحويين واللغويين.

والخليل بن أحمد الذي لم يشهد تاريخ الدرس النحوي، أحداً من يمكن أن يوضع في طبقته، فتاريخ التفكير النحوي عند الخليل هو تاريخ النحو العربي الذي يعرفه كل باحث في هذا التخصص لأن أقوال الخليل وآراءه وتعليقاته وقياساته مما (احتواه الكتاب الذي دون سيبويه فيه بأمانة وصدق وتنظيم).

والخليل ألف في النحو كتاباً (في العوامل)، وألف في الإمالة والجمل، وأشهر كتبه في اللغة كتاب (العين)، وكتاب الشواهد في الموسيقى (النغم) والإيقاع^(١).

(١) المدراس النحوية، د. خديجة الحديثي ص ٦٦.



وليس معنى هذا أنه لم يترك كتباً مهمة في النحو أنه لم يتطور النحو ويبلغ به درجة النضج والكمال.

وقد وصل النحو إلى الخليل التي رأيناها عليها من التطور في أصول درسه وبحثه وفي مسائله وأبوابه وفي مصطلحاته بفضل شيوخه الذين توفي آخرهم قبله بما يتراوح بين خمس وعشرين سنة، وكان الخليل متابعاً لأقوالهم عاملاً على تطورها وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً ضخمة بخروجه إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز وسماعه عن الأعراب المقيمين في وسط هذه الصحراء وتدوينه عنهم وحفظه لمعظم ما سمعه، ولم يقصر رحلاته على البادية وإنما كان كثير الرحلات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وليقابل هناك من تسنح له الفرصة لمقابلته من العلماء المقيمين فيها أو الوافدين عليها لأداء هذه الفريضة الإسلامية. وقد وصل إلى خراسان والأهواز وزار بغداد وأصله من عمان قدم إلى البصرة وهو شاب^(١).

والخليل أعظم نحوي حملته الأرض على مدى العصور، وأنه كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه، وقد انعقد الإجماع على أنه لم يكن أعلم بالنحو منه وأنه أتى في علم النحو ما لم يأت بمثله أحد قبله في تصحيح القياس واللطافة والتصريف^(٢).

والناظر في كتاب سيبويه نظر تمعن ومقارنة يستطيع أن يرى مبلغ صحة هذه الأقوال فقد تمت على يد الخليل دراسة النحو العربي وبلغت مرحلة النضج والكمال على يديه ولا نعني بذلك تنظيمه أبواب الكتاب أو ترتيب منهجه وإنما نعني ما ملئ به من آراء في علوم العربية، كالنحو

(١) نور القبس ص ٥٩.

(٢) أخبار النحويين البصريين، السيرافي ص ٣٠، والفهرست ص ٤٨.

والصرف واللغة بدراستها المختلفة، ولا سيَّما الصوتية كمخارج الحروف وصفاتها، ويربط بين هذه الأنماط والجزئيات ليكون للدراسة النحوية، هذا البيان الشامخ الذي بلغ عنده مرحلة النضج والاكتمال ولكي نوضح هذا الدليل لإبراز الظاهر في منهج بحثه النحوي.





المطلب الثالث

آراء الخليل في الفكر النحوي

١ - من آرائه (لا سيّما):

كان أول من فصل القول في تحليل التراكيب والعبارات المسموعة عن العرب مثل قولهم: (لا سيّما)، قال سيبويه: وسألت الخليل رحمته الله عن قول العرب: (ولا سيّما زيد) فزعم أنه مثل قولك: (ولا مثل زيد) (وما) لغو، وقال: (لا سيّما زيد، كقولهم: دع ما زيد) وكقوله: مثلاً ما بعوضة (ف) سي في هذا الموضع بمنزلة مثل فمن ثم عملت فيه لا كما تعمل رب في (مثل) وذلك قولك: رب مثل زيد^(١).

٢ - ومن آرائه (أحقاً إنك ذاهب):

قال سيبويه: «وسألت الخليل فقلت: ما منعهم أن يقولوا: أحقاً على القلب كأنك قلت: إنك ذاهب حقاً»، «وإنك ذاهب الحق»، «وإنك منطلق حقاً»، فقال: ليس هذا من مواضع (إن) لأن (إن) لا يبتدأ بها في كل موضع، ولو جاز هذا لجاز يوم الجمعة إنك ذاهب تريد إنك ذاهب يوم الجمعة، ولقلت أيضاً: لا محالة إنك ذاهب، تريد إنك لا محالة ذاهب، فلما لم يجز ذلك حملوه وعلى في حق أنك ذاهب؟ وعلى أخي أكبر ظنك ذاهب؟ وصارت أن مبنية عليه كما يبني الرحيل على غد؛ إذا قلت: «غداً الرحيل» والدليل على ذلك إنشاد العرب هذا البيت كما أخبرتك، زعم يونس أنه سمع العرب يقولون في بيت الأسود بن يعفر:

أحقاً بني أبناء سلمى بن جندلٍ تهذّكم إياي وسط المجالس

(١) الكتاب، سيبويه (٢٦/١).

فزعم الخليل أن (التهدد) بمنزلة الرحيل بعد غد وأن (أن) بمنزلته، وموضعه كموضعه^(١)، ففي هذين النصين تحليل وتعليل وقياس واحتجاج بالنظر والقياس.

عليه اجتمع كل هذا ليكون هذا الأسلوب من العرض والتحليل والإيضاح وفي النص الأول تتضح أحكام منها أن (ما) تجيء زائدة وأن الفصل بـ(ما) الزائدة بين المضاف والمضاف إليه لا يمنع العمل فهو جائز وأن (ما) تأتي موصولة ويحذف صدر ما وصلتها ويبقى الاسم الذي بعدها مرفوعاً دلالة على ذلك كما قوله تعالى: ﴿مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ وأن سي بمعنى مثل ولها حكمها فهي مثلها وما بعدها مجروراً بإضافاتها إليه وليست حرف جر.

٣ - ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

قال مكّي: (إيا) عند الخليل اسم مضمر أضيف إلى الكاف^(٢)، قال مكّي: وهو شاذ لا يعلم اسم مضمر أضيف إلى غيره^(٣)، وقال المنتخب بن أبي العز الهمذاني المقرئ:

وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب: إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيّا الشواب، فليس سبيل مثله أن يعترض على السماع والقياس جميعاً، ألا ترى أنه لم يسمع منهم إياك وإيا الباطل ولا حكى عنهم تأكيداً للواحق التي تلحقه من الكاف والهاء والياء فتركهم ما ذكرت دل على شذوذ هذه الحكاية وأن (إيا) وحده اسم وما بعده حرف يفيد الخطاب تارة والغيبة أخرى والتكلم ثلاثة^(٤).



(١) الكتاب، سيبويه (١٣٥/٣).

(٢) مشكل إعراب القرآن، مكّي بن أبي طالب ص٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن، مكّي ص٣.

(٤) إعراب القرآن المجيد، المنتجب، ورقة واحد مخطوط رقم ٧٤م.



المطلب الرابع

المصطلح النحوي عند الخليل بن أحمد

ويعرف علماء النحو المصطلح بأنه (أن الكثرة من المصطلحات النحوية والصرفية التي لا تزال شائعة على كل لسان في عصرنا كان لكتاب سيبويه الفضل الأول في إشاعتها طوال العصر^(١)).

ولا نغفل دور الخليل في وضع جملة من المصطلحات التي شاعت ومن أشهر المصطلحات التي اشتهر بها الخليل لم يسبقه أحد من قبل مصطلح التوهم.

١ - التوهم يعني:

(اللفظ الذي اتفق العلماء على اتخاذه للتعبير عن معنى من المعاني العلمية أو اتفق العلماء على التعبير بلفظ معين يصير علماً على هذا المعنى)^(٢).

وقد نسب سيبويه هذا القول إلى أستاذه الخليل القول بالتوهم ومن ذلك على سبيل القول: سألت الخليل رَحِمَهُ اللهُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

وقال الخليل: هذا لقول زهير:

بدأ لي أني لستُ مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائياً
فأنهم جروا على هذا لأن الأول قد تدخله الباء فجاوزوا بالثاني وكانوا

(١) المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، ونحو الخليل من خلال معجمه ص ٢١.

(٢) التوهم عند النحاة، د. عبدالله أحمد جاد الكريم، ط مكتبة الآداب القاهرة ص ٢٨.

أثبتوا في الأول الباء فهكذا كان الفعل الذي قبله قد يكون مجزوماً والفاء فيه تكملوا بالثاني وكأنهم قد جزموا قبله وعلى هذا توهموا هذا^(١)، ومما سبق ذكره أن أول من أطلق مصطلح التوهم هو الخليل بن أحمد قاصداً به التفسير أو التعبير اللغوي الذي لم يستقم مع قواعد النحو.

٢ - حروف الجزاء:

استعمله الخليل بمعنى أسماء الجزاء من نحو: أينما، ومتى، وما، وكيفما، والجدير بالذكر أن الخليل قد أطلق مصطلح (حرف) وأراد به (الكلمة) أو (الاسم).

٣ - اللغة العالية:

مصطلح أطلقه الخليل على اللغة المشهورة أو العالي إلى من كلام العرب^(٢).

٤ - المعكوس:

أطلق الخليل هذا المصطلح وأراد به المعطوف ولم نجد من المحدثين أو القدماء قد استعمل هذا المصطلح^(٣).

٥ - المكني:

المكني والكناية والمكنيات مصطلح يراد به عند الكوفيين ما يراد بمصطلح (الضمير) أو المضمّر عند البصريين^(٤).

وقد وجدنا الخليل يطلق على هذا المصطلح مريداً به (أسماء الإشارة قال: وأما ذه، وذى، وذأ، في هذه، وهذا، فأسماء مكنيات وليس في البناء

(١) الكتاب، سيبويه (١/٨٣).

(٢) معجم العين (٣/٢٨٥).

(٣) المصدر السابق (٣/٢١٦).

(٤) الكتاب، سيبويه (٢/٧٨٥).



فيها غير الذال، والألف التي بعدها زائدة^(١).

٦ - الموضع:

استعمل الخليل هذا المصطلح لدلالة على (الظرف) قال: في (غير) حرف صفة فيكون موضعاً لغيره ولفظه نصب لأنه ظرف لغيره^(٢).

٧ - النصب:

استعمله الخليل في بعض المواضع بمعنى البناء وبمعنى الفتح^(٣).

٨ - النعت:

النعت عند الخليل هو الوصف أو الصفة على حد اصطلاح البصريين والنعت على هذا ليس تسمية كوفيه أطلقها الفراء وتابعه الكوفيون كما تشير بعض المصادر^(٤).

وقد أطلق سيويه مصطلح الصفة على النعت والحال والتمييز^(٥).



(١) كتاب العين (٢٠٩/٨).

(٢) المصدر نفسه (٤٣/٢).

(٣) المصدر نفسه (٧٢/٢).

(٤) معاني القرآن، للفراء (١٤٥/١).

(٥) سيويه (٧/٤).

المطلب الخامس

خصائص المنهج النحوي في فكر الخليل بن أحمد

تميز النحو البصري في مراحل نشوئه ونموه وتكامله ونضجه على يدي الخليل بن أحمد بخصائص لمسناها من مناهج النحاة الذين بذلوا الجهد العظيم في سبيل بنائه على أصول سليمة وعلى مادة فصيحة أقرب ما تكون إلى لغة الكتاب العزيز ولغة القبائل التي عدت لغتها قمة الفصاحة والنقاء، واتبعوا في سبيل ذلك منهجاً اقتنعوا بسلامته وجودته بعد طول التتبع والمباحثة والمناقشة في مجالسهم. ولهذا؛ فقد وصل إلينا هذا النحو بمجموعة - إلا ما شذ - مثلاً في كتاب سيبويه الذي حوى آراء السابقين وجهودهم منذ زمن أبي الأسود إلى زمن الخليل ويونس وسيبويه المتعاصرين الذين اكتمل في زمانهم بناء النحو وثبتت أركانه وتبينت أبوابه وفصوله وأقسامه واتضحت أصولهم التي اعتمدوا عليها في كل هذا. ونستطيع في ضوء ما تتبعناه في نحوهم أن نجمل خصائص هذا الدرس النحوي عند البصريين بأمور لا نود الإطالة فيها لاتضاحها وظهورها في مناهج النحاة أنفسهم.

أ - القياس:

اعتمدوا على السماع وقد وجدنا علماء اللغة ورواتها وعلماء النحو عامة وعلى رأسهم عيسى بن عمر وأبو عمرو ابن العلاء والخليل يبذلون الجهود الجبارة في السماع عن العرب وتدوين ما يسعون إلى حفظه سواء أكان ذلك بالخروج إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز وما جاور البصرة من بوادي الجزيرة العربية التي كانت مقراً للأعراب الفصحاء أم بالسماع ممن يفدون في المواسم الأدبية إلى المربد من الأعراب والشعراء والخطباء



والفصحاء. ثم أخذوا هذا المسموع الذي جمعه من شعر ونثر فدرسوه وصنفوه إلى فصيح وأفصح وهذا الفصح منه ما هو مطرد شائع كثير، ومنه ما هو ظواهر قليلة إذا ما قيس إلى الأصل والمسموع في اللغات نفسها، فعدوا المطرد الشائع من الفصح أصلاً يقاس عليه وينوا عليه الأقيسة التي جعلوها ثابتة، واتخذت صورتها النهائية على يدي الخليل بعد أن كان سابقوه الذين عاشوا قبل منتصف القرن الثاني للهجرة يعدلون من أقيستهم إذا سمعوا ظاهرة جديدة عن شاعر مطبوع أو أعرابي صحيح السليقة فصيح اللغة، وفي زمن الخليل ثبتت هذه الأقيسة، وسموا ما كان وارداً في لغات العرب أنفسهم مما هو قليل (مسموعاً) وإن كان مقارباً لأقيستهم عدوه جائزاً إلا أنه لا يصح القياس عليه، وسموا ما خالف هذا الفصح مما سمعوه من لغات العرب الذين لم يعدوا ظواهر لغتهم ما يصح القياس عليها لمخالفتها الظواهر في اللغات الأخرى، سموها هذا لغة، فإن وقع في شعر ونثر وقل فهو مسموع نادر أو قليل، وإن كان ظاهرة مفردة فيهما فهو الشاذ، وإن وقع في شعر ولم يقع في نثر فإن أجازوه فيه سموه ضرورة، وما لم يتقبلوه سموه شاذاً، ولم يقيسوا على المفرد الشاذ المخالف للكثير المطرد.

ب - السماع:

وضعوا الأقيسة كما بينا على الكثير المطرد من كلام العرب المسموع وأول هذا المسموع كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعلوا هذه الأقيسة ثابتة منذ زمن الخليل ولم يغيروا بتغير المسموع الذي يرد إليهم بعد ذلك، فقد وقفوا من اللغة المنثورة المقيس عليها عند منتصف القرن الثاني للهجرة، أي: بنهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، واشترطوا في اللغات التي يقاس عليها أن تكون فصيحة مختارة لذلك عدوا لغة قريش أفصحها وهي قبيلة الرسول الكريم ﷺ^(١)،

(١) ينظر: المزهري (٢٠٩/١) وما بعدها.

وقد كانت أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس وكانت مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ونقلت اللغة العربية عن قبائل أخرى اقتدى بلغتها وهم قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين فعن هؤلاء معظم ما أخذه البصريون واعتمدوا عليه في دراسة الغريب والإعراب والتصريف. أما الشعر فقد احتجوا بأشعار الطبقات الثلاث الأولى في تقسيم ابن رشيق في (العمدة) وهي طبقة الشعراء الجاهليين وطبقة المخضرمين وطبقة متقدمي الإسلاميين كجرير والفرزدق والأخطل ومن عاصرهم وبابن هرمة (ت بعد ١٤٠هـ) وقف الاحتجاج عند البصريين^(١). على هذين النوعين المسموعين من كلام العرب وبهذه الشروط وضع النحويون البصريون أقيستهم التي اعتمدوا عليها وأكثروا منها وفرعوها وبنوا عليها قواعد النحو والصرف، وجعلوا للقياس أركاناً ولهذه الأركان شروطاً وقسموها أقساماً^(٢)، وهكذا وضعوا أقيستهم على أصول ثابتة لا يغيرها ما يجد من مسموع بعد هذه.

- (١) هو: إبراهيم بن علي بن سلمة بن هرمة بن هذيل ولد سنة ٩٠هـ، أنشد أبا جعفر المنصور في سنة أربعين ومائة ١٤٠هـ قصيدة فيه، ثم عمر بعدها مدة طويلة (الأغاني ٣٩٧/٤). انظر ترجمته فيه (٣٩٧ - ٣١٧/٤) ط دار الكتاب، والشعر والشعراء ترجمة رقم ١٧٩، وينظر في شروط اللغة المسموعة التي يقاس عليها ورواتها وزمانها وقبائلها: الصاحبى في فقه اللغة ٥٢ - ٥٣ و ٦٢ - ٦٣، والخصائص (٣١/٢ - ٣٥ و ٢٥ و ٥ - ٨ و ٩٣/٣٣٠ - ٩٤ و ٩٩) وغيرها، ولمع الأدلة ٨٤ - ٨٥ و ٨٠ - ٩٢، وكتب السيوطي الاقتراح والمزهر والأشباه والنظائر وجمع الهوامع في مواضع متعددة منها، وخزانة الأدب للبغدادى (٦/١ - ٨)، والعمدة (١١٣/١)، والشعر والشعراء (٦٣/١)، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه القسم الثاني السماع والقياس.
- (٢) ينظر هذا في الكتب السابقة، وفي الشواهد: كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه قسم ٢، القياس ٢٢١ وما بعدها.



ج - موقفه من الاحتجاج بالقراءات القرآنية:

وقد وقف الخليل من القراءات القرآنية وقراءاته موقف المدافع عما يرد في الكتاب العظيم فقاوسوا على آياته ما أجازوه من قواعد وأجازوا ما جاء في قراءاته المتواترة، ولم يصدر عنهم طعن في قراءة أو تخطئة لقارئ شاذة كانت قراءته أم غير شاذة كما قسمها أبو بكر ابن مجاهد ٢٤٥هـ - ٣٢٤هـ ولم يختلف في ذلك أحد منهم فليس في كتاب سيبويه ما نسبته المتأخرون المتعصبون للكوفيين من أنهم أول من خطأوا القراء، وقد كان هذا اتهاماً باطلاً لهؤلاء النحاة القائلين على لغة القرآن الكريم وكل ما هنالك أنهم كانوا يخرجون بعض القراءات الشاذة عن أقيستهم إما بتفسير وتقدير يتطلبه المعنى ويوحى به وإما بعدّها واردة على لغات العرب التي لم يبين البصريون عليها أقيستهم لضعفها وقتلها، ومع ذلك فهي لغة عربية يؤخذ بما جاء فيها من ظواهر نحوية وصرفية ولغوية ومن كان لا يقاس عليها.

وأود أن أشير هنا - وإن كان في هذا سبق لما يجب أن يكون عليه هذا البحث - إلى أن الذي صح وثبت بمراجعتي للقراءات التي أثهم البصريون بتخطئتها أو الطعن فيها - في كتاب سيبويه ممثل النحو البصري (ومعاني القرآن) ممثل آراء الكوفيين ونحوهم ما أثار دهشتي. وذلك أن أول تخطئة وطعن وجه إلى هذه القراءات كان صادراً عن الكسائي شيخ القراء والنحاة الكوفيين على تخطئة القراء والطعن في القراءات ابتداءً من المازني والمبرد وابن جني الذين اقتدوا بهذين الشيخين الكوفيين...

د - موقفه من الاحتجاج بالحديث النبوي:

أما الاحتجاج بالحديث النبوي فلم يرد في كتب النجاة الأوائل كوفيين كانوا أم بصريين أنهم عدوه من أصول الاحتجاج ولا اعتمدوا عليه في استنباط قاعدة أو إثبات ظاهرة يؤخذ بها ويقاس عليها مما خالف منه الوارد في كتاب الله وكلام العرب الفصحاء منشورة ومنظومة، وقد كان أبو

الحسن ابن الضائع ٦٩٠هـ أول من تنبه على أن ابن خروف قد احتج بالحديث وخالف بذلك سنة النحاة السابقين، ثم جاء أبو حيان ولاحظ مبالغة ابن مالك في بناء الأقيسة والقواعد عليه فرد عليه وعلل هذا الرد بأن الحديث روي بالمعنى وإن معظم رواه غير عرب ولا يستطيعون التعبير عن معنى الحديث بعبارات يصح تركيبها وتأتي على أسلوب الرسول ﷺ وما يزال الباحثون مختلفين في الأسباب التي دعت إلى إبعاد الحديث عن مجال الاحتجاج وكل منهم يعلل بعله يراها ويقترح رأياً يعرضه ويدافع عنه^(١).

وبعد هذا العرض لما بنى عليه الخليل والبصريون نحوهم نوجز موقفهم من هذين الأصلين وهما السماع والقياس، وذلك أنهم كانوا يعدون السماع الأصل وإن وجد القياس، فإذا اجتمع السماع والقياس في الظاهرة الواحدة أخذوا بكل منهما وإن اختلف السماع والقياس فيها فضلوا السماع على القياس وأخذوا بالمسموع ولم يقيسوا، وإن لم يكن لديهم المسموع فيها لجأوا إلى قياسها على أمثالها. فإن ورد عن العرب الفصحاء أو عن شاعر من الشعراء الذين يحتج بشعرهم أو في قراءة قارئ غير متواترة ما خالف أقيستهم مما لا يستطيعون تخطئته أو رده لجأوا إلى التفسير والتأويل بتقدير محذوف ونحوه ينسجم مع المعنى ويوافق الأقيسة، وقد كثر هذا عندهم، إلا أنه لم يكن كما وصفه بعض الباحثين من أن نحوهم يعتمد على التأويل، أما التعليل فلم يتضح عندهم ما رموا به أنهم أفسدوا النحو بتعليلاتهم وإنما كان تعليلهم - كما لاحظنا عند النحاة ومنهم الخليل وسيبويه - يرد على الصورة السهلة الواضحة التي يدعو إليها البحث في الظاهرة وعرض أحكامها وأصولها من تبين لعلل ورود هذه الموضوعات أو الظواهر الإعرابية والصرفية والصوتية على الصورة التي وردت، وإيضاح

(١) ينظر: الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه موضوع الحديث في القسمين، وكذا موضوع القراءات فيهما وينظر ذلك مفصلاً في كتاب: موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف.



أسباب ذلك للدارسين من العرب وغيرهم من الأقوام التي دخلت في الإسلام والتي وُضع النحو ودراسات العربية من أجلهم مما كان لا بد منه ولا مفر منه وهو ما سماه الزجاجي العلة التعليمية وهي أول العلل وأوضحها^(١).



(١) ينظر في العلة وأقسامها الإيضاح في علل النحو ٦٤ - ٦٥، والخصائص (٢٤٩/١)، والإغراب في جدل الأعراب في فصول متعددة منه، والاقتراح للسيوطي ٢ و ٤٧ - ٤٨ و ٥٦ - ٥٧ وغيرها، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه في أنواعها.

